

التفكر عبادة

يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الاعراف: ١٨٥]. ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]. ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ [ق: ٦]. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]. ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

ألم يقرع سمعك قوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُّوْا﴾ ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

إنَّ حشدَ هذه النصوص وأشباهها في كتاب الله ليس حشوا كالذي تراه في مناهج التعليم، ولا تحصيل حاصل، وإنما هذا أمر ينم عن خطر عبادة التفكير وعظيم شأنها، تلك العبادة التي تكاد تكون مهجورة في زماننا.

فترى الرجل كثير الصلاة، كثير الأذكار، كثير الصدقة والصوم والاعتبار، لكنه على امتداد عمره، قلما سرح ناظريه في خلق الله مُتَفَكِّرًا مُعْتَبِرًا.

والتفكر وصية رسول الله ﷺ فقد قال بأبي هو وأمي ونفسي: «تفكروا في خلق الله» حسنه الألباني في «صحيح الجامع».

وكان كثير من سلفنا الصالح عليهم السلام يُفَضِّلُونَ التفكيرَ على نوافل العبادات.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة».

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «التفكر في نعم الله أفضل العبادة».

وقال أبو سليمان الداراني: «إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله فيه نعمة ولي فيه عبرة».

أنعم الله على عباده بالنعم ليعرفوه بها: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَرِيكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ فَاعْرِضُوا عَلَيْهَا﴾ [النمل: ٩٣]. والتفكر من خصائص الإنسان التي يتميز بها عن العجماوات وقد شنع سبحانه على أولئك الذين عطّلوا عقولهم وبصائرهم فلم يستدلوا بها على مولاهم.

قَالَ النَّبِيُّ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأجراف: ١٧٩].

وقد ابتلي الناس إلا ما رحم ربي في عصرنا هذا بندرة التفكير أو ضعفه بسبب الانفتاح على الدنيا والطغيان المادي المعاصر، فصارت الدنيا الفانية شغلهم الشاغل، وتبدّل الإحساس تجاه آيات الله المبهرة على نحو مريب، ولعل من أسبابي هذا أيضاً الإغراق في المعاصي، فمن عقوبات المعاصي أنها تعمي القلوب. ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وها هو القراءان يُعرِّفنا بربنا، يُخاطِب عقولنا، ويدعوها للنظر، فهو يخاطب العقل، ويوقظ الفطرة، ويخشد الأدلة، ويتحدى الكافرين، ويعالج الوسواس، ويلفتنا إلى نعم الله التي لا تُعد ولا تُحصى.

«إخوتاه» كم هي الآيات العظيمة التي نُشاهدها في الآفاق، تتجلى عظمة الله فيها! ولكن تكرار ذلك أمام الحس والنظر جعلها مألوفة، آه لو أَلْقَيْتُ أَخِي عن عقلك البلادة وإلف العادة، ساعتها تستقبل مشاهد الكون بإحساس حيٍّ مُتَجَدِّد، فَتُزَلِّزُ كِيَانَكَ تلك الأعاجيب.

إننا نحتاج وبِشْدَةٍ إلى أن ننظر إلى كل شيء بعين الاعتبار، وأن نُحاول إدراك حكمة الله فيه؛ إذ ما خَلَقَ الله شيئاً في العالم إلا وله فيه حكمة جَلِيَّةٌ أو خَفِيَّةٌ.

إِنَّ نظركَ إلى نعم الله تعالى بمِثَابَةِ وَقودِ إِيْمَانِي يدفعُكَ إلى مزيد من الشكر، فالقلوب مجبولة على حب مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا؛ وَلِذَا كَثُرَ في القراءانِ سَوَقُ آيَاتِ النِّعَمِ وَالْخَلْقِ وَالْفَضْلِ تَنْبِيْهاً لهذا المعنى، وكُلِّمًا ازدادتَ علماً بِنِعَمِ الله عليك ازدادتَ شَوْقاً لشُكْرِهِ على نِعَمَائِهِ وآلَائِهِ.

والبعض سَفِيه لا يعرف مِنْ نِعَمِ الله تعالى عليه إلا نعمة الأكل وقد عَلِمَتْ البهيمة أنها تجوع فتأكل، وتتعب فتنام، وتستهوي فتجامع، فتَعَسَا لعبد لم يعرف مِنْ نَفْسِهِ إلا ما يعرف الحمار! فكيف يقوم هذا بِشُكْرِ مولاه ولا يُتَصَوَّرُ شكر النعم إلا بعد مَعْرِفَتِهَا، لذا فالجهل والغفلة قَصْرًا بالعباد عن شكر مولاهم.

مولاي

إِنْ لَمْ تَكُنْ عَيْنِي تَرَكَ فَإِنَّنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ أَسْتَبِينُ عَلاكَ

اعلم أيها العبد أن كل ما في الوجود مما سوى الله فهو فعل الله وخلقه، وإحصاء تلك الآيات غير ممكن، إن هذا الكون بحق كتاب مفتوح يُقرأ بكل لغة ويُدرَك بكل وسيلة.

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملاء الأعلى إليك رسائل
وقد خُطَّ فيها لو تأملت ألا كل شيء خلا الله باطل
تُشيرُ بإثبات الكمالات لربها فصامتها يهدي وما هو قائل
بربك ألم تُبهرِك زُرقة البحر، وصفاء السماء، وبراءة الأطفال، وروعة
الغروب، وحمرة الشفق؟!

تكفيك نظرة إلى جناح فراشة أو رأس هُدهُد، أو شق زُمانة، إذا
أردت أن تستشعر عظمة الله أكثر فتأمل بديع مخلوقاته من حولك من
الذرة إلى المجرة، ومن النملة إلى الحوت.

انظر إلى: الوحوش الهائمة، والطيور الحائمة، والحيتان العائمة.

انظر إلى: النار تحرق والماء يُغرق.

انظر إلى: السم يُصنع منه الدواء، والهواء يعصف فيدمر الأشياء،
ويقتل الأحياء وينقل الوباء، أو يكون عاصفة هوجاء.

هذا مخلوق بناؤه يَصُول، وذاك بمخلبه يَجُول، وثالث بمنقاره يُناضل
وآخر بريشه يُقاتل.

انظر إلى: البشر بين عاقلٍ حصيف، وطائشٍ خفيف.

انظر إلى: الحر يكاد يُذيب الحديد، وإلى البرد يُحوّل الماء إلى جليد.

تأمل مطلع الشمس ومغييها.

لحظة تأمل في الظل الممدود، ينقص بلطف أو يزيد.

نظرة تأمل إلى العين الفوارة والزهرة المفتحة والحصيد الهشيم.

ولله في كل تحريكة وفي كل تسكينة شاهد

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

بث الله الآيات في الأرض للموقنين.. فأينما وليت وجهك رأيتها.

لله في الآفاق آيات لعل أقلها هو ما إليه هداك

والكون مشحون بأسرار إذا حاولت تفسيراً لها أعياك

يا أيها الإنسان مهلاً ما الذي ي بالله جل جلاله أغراك

فكن ذا عينٍ لماحة، ودرب نفسك حتى تكتسب ملكة التدبر.

طبيبٌ يدرس الطب في أمريكا، يتعين ويعمل في الخليج، يأتيه مريض

من الهند، يصف له دواءً صُنع في الصين.

كيف يتم هذا لو لم تكن بنية الإنسان واحدة؟

ولو جعل الله لكل إنسان بنية تشريحية خاصة به وحده لما نفع الطب

ولما كان طبُّ من الأساس، لكن الطبيب يضع مبضعه على الجلد وهو

يعلم أنه سيجد الشريان الفلاني في مكان كذا تحديداً بالمليمتر.. أليس هذا

دليلاً على أن خالق الخلق واحد.

دلالة الصنعة على الصانع

قديمًا قالها الأعرابي البسيط: «إن البعر يدل على البعير، وأثر الخطأ يدل على المسير، سماوات ذات أبراج، وبحار ذات أمواج وصحاري ذات فجاج أفلا يدل كل هذا على اللطيف الخبير؟!».

اعلم أخي أنه لا شيء أدل على شيء من دلالة المخلوقات على عظمة وقدره خالقها؛ فالعلاقة بين الصانع والمصنوع وثيقة جدًا، وبالنظر إلى المصنوع تستدل على بعض صفات الصانع، إنك إن رأيت سيارة قُطعت بأن صانعها موجود، وجزمت بأنه ماهر ذكي، وأنه عاقل غير مجنون، وأنه يمتلك حديدًا وزجاجًا وأسلاكًا ومطاطًا، وأنه قادر على تشكيل الحديد والزجاج على نحو ما ترى، وأنه عالم بالفيزياء والكيمياء والكهرباء والدهانات، وبأن لديه ذوق ولمسة جمال.

إنك لم تلتق بمصمم الطائرة قط، ولم تطلع على شهاداته، لكنك تشهد له بالخبرة والعلم. فله المثل الأعلى ألا تدلك مخلوقاته على علمه وخبرته، وقوته ورحمته، وجماله ولطفه، وحكمته وقيوميته.

إنك حين تقرأ اسم فلان من الناس مسبوقًا بحرف الدال، فتستدل بحرف واحد على أن هذا الشخص درس وتعلم، وحصل الابتدائية والإعدادية والثانوية، وتخرج في الجامعة، وأحرز الليسانس أو البكالوريوس، وأتبعه بدبلوم عام ثم خاص، ماجستير، دكتوراه.. ناقش مجموعة من العلماء وأجازوه.. قدم بحثًا لم يسبق إليه واعتبرته الجامعة وصار معتمدًا.

كل هذا استنتجته من حرف الدال فقط، بل ترى مسهراً دُق في حائط فتجزم أن لفاعل ذلك حكمة.

من العجيب أنك تدخل بيت غني مزخرف فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره، يقف الناس أمام الأهرامات مشدوهين.. يتعجبون.. وتسمع العبارات تنم عن انبهار.

تحفة معمارية، من أين جاءوا بالصخور؟ كيف حملوها؟ كيف أحكموا تقطيعها؟ كيف علوا بها إلى هذا الارتفاع؟ كيف يمسك الحجر الحجر، انظر إلى السرايب.. تأمل التهوية، نفس الإعجاب ستره في المعرض الدولي للفنان العالمي؟ فإن كان الحال كذلك لم التبلد تجاه خلق الله؟ مالك تقف أمام آياته بارداً.

إن الإنسان ما صنع شيئاً إلا على مثال سابق أما الله فهو البديع سبحانه، يخلق ما يشاء على غير مثال سابق، صنع الإنسان قاصر، لأن علمه مخلوق ناقص، يبني الكباري فتنهار لتمدد الحديد صيفاً، فيتلافي هذا ويقدر فراغات للتمدد، يصنع شاحنات لنقل وقود الطائرات فتنفجر بفعل حرارة الشمس، فيتعلم ويصنع عازل للحرارة ومبردات، فهو إذن يجرب، يصيب مرة ويخطئ مرات.

انظر إلى عيوب وسداجة مصنوعاته، قارن بين السيارة التي صنعت ١٩١٠ بأحد المتاحف وبين سيارة اليوم، فالأولى تدور بمنقلة من الأمام، وتضئ بفأئوس يُشعل، والبوق يعمل بالنفخ، والإطارات ليس بها هواء، والمحرك حركة واحدة.

فأين هذه مما يسمونها اليوم «فول أوبشن» الفرق هائل لا يكاد يُصدق. لأن خبرة الإنسان تتنامى.

إن أول جهاز كمبيوتر اخترعه الإنسان كان في عام ١٩٤٦ وزنة ٦٠ ألف رطل كان يشغل مساحة فسيحة، الآن مثل هذه الأجهزة يُحمل اليوم على هيئة حقيبة صغيرة.

يصنع التلفاز الأبيض وأسود ثم يحتاج لـ ٢٠ سنة تتنامى خبراته وإمكاناته فيتطور ليصنع تلفازًا بصورة ملونة.

أما صنعة الله الخبير العليم فليست كذلك..

هل سمعت بربك أن إنسانًا كان في الأربعينات بشكل وخلقة ثم تعدل في الستينات، أو أضيفت له تعديلات وتطور في التسعينات؟ إن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، وأتقن صنع كل شيء فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه ولعظيم سلطانه.

ذكر جملة من ثمرات التفكير

إن نبي الله موسى لما سئل عن ربه: ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠]. فأنعم بها من إجابة! وما أروع من تعريف!

وأنت كلما طالعت عجائب المخلوقات كانت معرفتك بجلال الخالق أتم، وإذا بنفسك لطاعته أرغب، وصدرك للإيمان أرحب، وقلبك إليه أقرب، فإن عَظُمَتِ الأَمْرَ عَظُمَتِ الأوامر.

قال بشر: «لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه».

إن الموفقين لما أعملوا عقولهم فيها خلقت من أجله، وتفكروا في آيات الله الدالة عليه، ازدادوا بهذا التفكير معرفة برهم ويقيناً به ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ وانعكس ذلك على عبوديتهم ومعاملتهم لله، فازدادوا له تعظيماً وخشية ﴿سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، وأنت أيضاً أخي على قدر معرفتك بالله تحشاه فتدأب في طاعته وتجتهد في مرضيه، وتُفكر ألف ألف مرة قبل أن تعصيه، ولا شك أن اجترأ العصاة على معاصي الله ناتج عن ضعف وقلة معرفتهم به سبحانه فجعلوه أهون الناظرين إليهم ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وقد قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾.

قال أبو سليمان الواسطي: «ذكر النعم يورث الحب لله عز وجل» وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ فالمحبة على حافة النعم، جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها، ومشاعر الحب داخل الإنسان تتوجه لمن يعطيه ويحسن إليه، وكلما ازداد العطاء ازداد الحب، لا سيما إن كان العطاء بلا مقابل، فالإنسان أسير الإحسان، انظر: كيف تبدلت مشاعر صفوان بن أمية تجاه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من البغض والعداوة إلى الحب والموالاة، تبدلت مشاعره تماماً بسبب عطائه المتواصل له فإن كان الأمر كذلك فكيف حالك مع الله الذي أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أحبو الله لما يغذوكم به من النعم.

إذا القلوبُ خلت من حُبِّ خالقِها فهي الصُّخورُ تحتلُ أبداناً

إذا خلا المرء من شوقٍ ومعرفةٍ ظلمتَ نفسك لو تدعوه إنساناً

وخشية الله وحبه من أعظم الدوافع لعبادته، فالأم تسهر من أجل وليدها، وتضحي براحتها ونومها، وما ذلك إلا لشدة حبها له، والمريض سيتجرع دواءً مرّاً حباً للعافية وكرهاً للمرض، والطالب يذاكر حباً للنجاح، والعبد كلما كان محباً لله كان أنشط في عبادته وأسرع إلى طاعته، ولما كان رسول الله ﷺ أعلم الناس به كان أشدهم حباً له وأتقاهم وأعبداهم له.

والمتدبر لكتاب الله يجده كثيراً ما يذكر الناس بنعم الله، ثم يردف ذلك بالأمر بشكرها، ففي تذكيرهم بنعم ربهم ترقيقاً لقلوبهم، وإثارة لإيمانهم، وبعثاً وإيقاظاً للمحبة الكامنة، ومن ثم تسهل عليهم وظائف العبودية، ها هو نبي الله هود عليه السلام يذكر عاداً بنعم الله عليهم فيقول: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً ۖ فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الاعراف: ٩٦]، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٢٠]، ثم يأتي التكليف بعد ذلك مباشرة: ﴿يَنْقُومِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ [البقرة: ٢١].

وتأمل أخي قول الله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرِيُمْ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٤٢]. ثم يأتي التكليف بعدها ﴿يَمْرِيُمْ أَفْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [الزمر: ٤٣].

فلما أخبرتها الملائكة باصطفاء الله لها وتطهيرها كان في هذا من النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة ما يوجب لها القيام بشكرها.

ومثله ما وقع للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ فَقَالَ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]. ثم أتبع التشريف بالتكليف فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ و عدد عليه نعمه فقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ١ ﴿وَوَضَعْنَا عَنَّاكَ وَزَرَكَ﴾ ٢ ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ ٣ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشح: ١-٤]. ثم ختم السورة بقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ ٤ ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشح: ٧-٨]، نفس الأمر تراه في سورة الضحى، يذكر الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببعض نعمه عليه ثم يعقب ذلك بالأمر والنهي ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ ٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ١١

[الضحى: ٥-١١]

ولو تتبعنا هذا في القرآن لرأيت أنه كثير: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ١٢ ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [فيل: ٣-٤]، ﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

فإن كان التفكير يورث خشية الله ومحبة على نحو ما رأينا فهو سبب الفلاح والنجاة بإذن الله، وكم من ملحد استعمل نعمة العقل فهداه الله؛ فأسلم لما تفكر، والمتفكر في عظمة الله ونعمه يستشعر شديد تقصيره في حق الله تعالى، فتراه أبعد ما يكون عن العجب ورؤية النفس والعمل.

ولا يفوتني أن أذكر أن كل الاختراعات التي نراها هي ثمرة من ثمرات التفكير، فالإنسان ما صنع الغواصة إلا بتفكره في خلق الله للسمة، واستوحى الطائرة من الطائر والكاميرا من العين.. وهَلَمْ جَرَّاً..
والآن.. هل تسمح لي أيها القارئ الكريم أن أصحبك في جولة سريعة نطالع فيها شيئاً من نعم الله وآلائه علينا عساها تكون وقوداً إيمانياً نتزود به في سلوكنا إلى الله؟

أيها السعيد بالإسلام

ألا ترى نعمة الله عليك في أن جعلك مسلماً؟
حررك من العبودية للمخلوقين وجعلك عبداً لله وحده، هناك أن تسجد أو أن تذل لسواه، هناك أن تحلف بمخلوق أو أن تصرف عبادتك لمقبور أو أي طاغوت جعلك من خير أمه أخرجت للناس، هناك عن إتيان السحرة والكهّان الذين يعشّون بعقائد وعقول البشر.
ألا تحب الله الذي أرسل إليك خير رسله محمد ﷺ وأنزل عليه القرآن العظيم؟ رضي لك الإسلام ديناً، حُبب إليك الإيمان وزَيَّنَهُ في قلبك، وكرهه إليك الكفر والفُسوق والعِصيان.

أيها المسلم.... أنت مدلل بأحكام هذه الشريعة!

فالشرع حرّم دمك ومالك وعرضك على الناس، جعل سبابك فسوقاً وقتالك كفراً، حرّم أن يُشارَ إليك بحديدة أو أن تُروّع وأنت الآمن، حرّم أن يباع على بيعك أو أن يُشترى على شرائك، أو أن تُخطب بخطوبتك،

وجعلك قيماً على زوجتك، وحَرَّمَ عليها صيام النفل وأنت شاهد إلا بإذنك، وسخط عليها إن هي منعتك حقك، حَرَّمَ على ابنتك أن تتزوج إلا بإذنك ورضاك، حَرَّمَ على جيرانك أن يؤذوك، وعلى أولادك أن يعقوك، وعلى التجار أن يغشوك أمر الناس بالتواضع وخفض الجناح لك، ولين الكلام معك، وبإكرامك إن نزلت عليهم ضيفاً، وبتشميتك إن عطست فحمدت قالوا: (يرحمك الله)، وجعل تبسمهم في وجهك صدقة وعبادة.

شرع القرض لتفريج كرباتك، ورغب الناس في زيارتك إن مرضت، ووعد عليها بالأجر العظيم، جعل دية أصبع منك عشرة من الإبل، وأمر الدولة الإسلامية أن تفتديك بكل ما تقدر عليه إن أسرك العدو، فإن مت أمر بتغسيلك وتكفينك ودفنك ستره لك وكرامة، ورغب الناس في الصلاة عليك واتباع جنازتك، وأمر بالإحسان إلى أولادك اليتامى فكافلهم مع رسول الله ﷺ في الجنة كهاتين.

ذبت حياءً منك مولاي

شرعت لنا الجهاد ولولاه لداهم العدو ديارنا فأفسد البلاد والعباد، شرعت لنا الزواج والتعدد، شرعت لنا القصاص، ولنا فيه حياة، شرعت لنا الاستخارة نستخيرك في أمورنا، شرعت لنا العيد نفرح ويعلم أعداؤنا أن في ديننا فسحة، شوقتنا إلى الجنة، خوفتنا من النار، شرعت الهدية لإدخال السرور وتوطيد المحبة، شرعت إفشاء السلام وإطعام الطعام، أمرتنا بصلاة الجماعة ولولا وجوبها لما لاق بأمثالنا أن يدخل بيوت الله، أذنت لنا بذكرك ولم تُوجب علينا غسل ألسنتنا (ألف مرة) قبل ذكرك.

ألا تحبه...

رفع عنك الخطأ والنسيان وما استكرهت عليه، خفف عليك الصلاة من خمسين إلى خمس، ورخص لك في الجمع والقصر أحياناً، وأجاز لك الصلاة قاعداً، بل ومضطجعاً إن كنت معذور تيسيراً عليك ورفعاً للحرَج.

أسقط عنك الحج إن لم تستطع إليه سبيلاً، ورخص لك في إفطار رمضان إن كنت من أهل الأعذار مع القضاء أو الفدية، هوّن عليك الصيام فقال: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ [البقرة: ١٨٤].

فتح باب التوبة ليل نهار، ييسط يده، فهل من عودة؟
لم يعاجلك بالعقوبة بل أمهلك لتتوب.. ﴿ وَلَوْ فَشَاءَ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مَوْضِعًا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ [يونس: ٦٧].

جعل الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها، أعطاك ليلة القدر خير من ألف شهر، شرع لك الدعاء تناجيه شرع لك سنة الفجر خير من الدنيا وما فيها، جعل ركعتي الضحى كإخراج ٣٦٠ صدقة، أعطاك على قولك «سبحان الله وبحمده» نخلة في الجنة، حصنك بالأذكار فلا يقربك شيطان، أعطاك بكل حرف في القرآن تتلوه ١٠ حسنات، إن دلت على خير أعطاك مثل أجر فاعله، وعدك بيتاً في الجنة مقابل اثنتي عشر ركعة من غير الفريضة.

نهى الناس عن سوء الظن بك أو خيانتك أو حسدك أو الشهامة بك،
وحرّم عليهم احتقارك، والطعن في نسبك، والغدر بك، وهجرك فوق
ثلاث، نهى عن التغوط في الطريق التي تسلكها.

«لمصلحتك».....

- حرّم عليك تناول السم، والخمر المفسدة، وتعاطي الزنا المدمر.
 - حرّم عليك الميتة، والدم، ولحم الخنزير، والنجاسات، والخبائث.
 - حرّم عليك الربا، فأنت لا تقوى على حرب الله.
- تأمل نسبة المحرمات من الطعام والشراب والنساء والمعاملات فإذا
هي لا تذكر في جانب الحلال الطيب المباح.
- أمرك بكل معروف ونهاك عن كل منكر.
- «هنيئاً لك إسلامك»...

سافر رجل إلى بلاد الهند ونزل في أحد الفنادق، ثم استيقظ مبكراً على
جلبة وضجيج، فسأل عن السبب فعرف أن هناك جنازة لرجل مات، لكنه
لما نظر رأى نعشين، وفي الثاني امرأة مُسَجَّاة على خشب تضطرب وتتحرك
فسأل مُندهشاً عن هذا!! فقالوا: «إنها زوجته ويجب أن تُدفن وتُحرق معه»
هكذا يأمرهم دينهم، أما إن ماتت الزوجة فهو يتزوج غيرها. فهل هذا
دين؟! قل الحمد لله على نعمة الإسلام.

يقسم لي بالله أحد إخواني وكان مسافرًا للخليج أنه فتح باب غرفة السكن يومًا فوجد عاملاً هنديًا يسجد لـ «علبة البيفي» وعليها صورة البقرة!!.

هل استشعرت العزة التي أنت فيها أيها المسلم بانتمائك لهذا الدين العظيم، وليس هذا البحث مجال لعرض سخافات الملل الأخرى والأديان المحرفة وإلا لطال المقام بي.

فهؤلاء يسجدوا للفران، وآخرون يعبدون الصليبان والأوثان، وهذا يتاجر في صكوك الغفران، والحمد لله على العافية.

إن الله عز وجل أنعم عليك أيها المسلم بنعمة العقيدة الصحيحة السليمة، أما غيرك أيها الموحد ففي ضلالاتهم يترددون، وفي ظلماتهم يتخبطون ويتحIRON، وقرآنك يزيد على ٦٠٠٠ آية يستحيل ثم يستحيل ثم يستحيل أن تجد فيه معلومة غير صحيحة أو حرفًا يخالف الحق: ﴿ذَلِكَ الَّذِي كَتَبَ لِارِثٍ فِيهِ﴾ ﴿لَا يَأْنِيهِ الْبَطْلُ﴾، كم من إنسان اعتقد عقيدة وآمن بنظرية ثم تبين له بطلانها وفسادها، فأصيب بحسرة وخيبة دمرت كيانه! أما المسلم فينعم بأمان عقائدي عجيب لا مثيل له، إذ ليس في كتابنا حرف يُنْقَضُ فما من حدث يمر في الكون إلا وتراه مؤكدًا لما فيه.

«قل الحمد لله»...

أعطاك الإسلام وجعلك على السنة، فلست شيعيًا تعبد الحسين والعباس، ولست صوفيًا تعبد القبور والأولياء، ولست عقلانيًا تقدس

العقل وتُقدِّمه على نصوص الوحي الشريف، ولست من الخوارج تكفر الناس بهواك.

اسمك، محمد أو أحمد أو علي، وليس اسمك جرجس أو بطرس أو عبد المسيح!!!.

اسمك فاطمة أو خديجة وليس دميانة أو راشيل أو إيفون أو ماتلدا.
 فيالها من نعمة ومنة، أن جعلك مسلمًا: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمُ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

[الجزء: ١٧]

ومن نعمه عليك أنك أدركت صاحب سنة يملك عليها، ونحن في زمن الغربة.

ومن نعمه عليك أن لك إخوان صدق صالحين، في الله أحبوك، إن غبت عنهم تفقدوك، وإن غفلت ذكرك، وإن هممت بخير أعانوك، وإن دعوا لأنفسهم ما تركوك.

ومن نعمه عليك أن الله مد في أجلك يومًا جديدًا، فاستحضر أن الله يستعيبك عساك تتوب وتقبل عليه، وكان النبي إذا استيقظ حمد الله على أن رد إليه روحه وعافاه في جسده وأذن له بذكره.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه لما أخبرته جاريته بطلوع الشمس: «الحمد لله الذي وهب لنا هذا اليوم».. وإلا فكل يوم يعيشه المؤمن غنيمة.

فاحذر يا عبد الله أن يكون عمرك حجة عليك، واعلم أن الكفار يطلبون الخروج من النار لعمل الصالحات فيكون الجواب: (أولم نعمركم)، قَالَ تَجَالَى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [قَاطَرٌ: ٣٧].

إنهم يصرخون ويتصارخون ويستغيثون ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾، فاعترفوا بذنوبهم وعرفوا أن الله عدلٌ فيهم، ولكن سألوا الرجعة في غير وقتها فيقال لهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ أي: دهرًا وعمرًا لمن أراد العمل، متعناكم في الدنيا، وأدرنا عليكم الأرزاق، وقبضنا لكم أسباب الراحة، وأمددناكم في العمر، وتابعنا عليكم الآيات، وأوصلنا إليكم النذر، وابتليناكم بالسراء والضراء لتنبهوا إلينا، حتى إذا انقضت آجالكم، وتمت أعماركم، ورحلتم عن دار الإمكان بأشر الحالات، ووصلتم إلى دار الجزاء سألتكم الرجعة؟ هيهات هيهات، فات وقت الإمكان، وغضب عليكم الرحيم الرحمن، واشتد عليكم عذاب النيران، ونسيكم أهل الجنان، فامشكوا في العذاب خالدين.

وقد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد ههنا فمنهم من قال: «٦٠ سنة» ومنهم قال: «٤٠ سنة» وقيل: «٢٠ سنة» وقيل: «١٧ سنة».

وقال قتادة رَحِمَهُ اللهُ: «اعلموا أن طول العمر حجة، فنعوذ بالله أن نُعَيَّرَ بطول العمر، قد نزلت ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ وإن فيهم لابن ثمانٍ عشرة سنة».

ومن نعم الله عليك إنه أخفى عليك ميعاد موتك، نعم إن جهلك بأجلك نعمة عظيمة ولو عرف الإنسان أجله لتغص بذلك وطال غمه، ولو أطلعك الله على ضمائر الناس لطال ألمك وحقك، ومن نعم الله عليك أنه أخفى ليلة القدر وساعة الجمعة.

ومن نعم الله الصحة والفراغ قال رسول الله ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُوتَانِ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ» رواه البخاري.

ومن نعم الله عليك الشهوة... تشتهى الطعام فتأكل، وما هو المريض ينظر للطعام فلا يشتهي، من نعم الله عليك أنك تشبع لتترك الطعام وإلا هلكت نفسك بالإسراف فيه.

بل قد يكون من نعم الله على العبد أنه أفقره، ففي فقره صلاحه وحجبه عن الطغيان: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ ﴿٦﴾ أَن رَّأَاهُ اسْتَفْتَى ﴿٧﴾﴾ [الْعَلَق: ٦-٧]، ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴿٢٧﴾﴾ [الشُّورَى: ٢٧]، ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾

[الْمُؤْمِنُونَ: ٧٥]

وفي أنفسكم أفلا تبصرون

نفسك يا عبد الله أقرب شيء إليك، وفيها من الآيات ما تنقضي الأعمار بالوقوف على بعضه، وما من عضو من أعضائك إلا وفيه خارقة تحير الأبواب. ولو وقفت متأملاً في نفسك ستدهش وتهتف سبحانك خالقي.

«أخي الحبيب» اعلم أنه لا يشبهك أحد في هذه الدنيا، ببصمة إبهامك، بنبرة صوتك، بقزحية عينك، برائحة جلدك، وغيرها من الأشياء التي لا تتطابق مع صفات ستة آلاف مليون إنسان يعيشون على هذا الكوكب.

«أيها العبد» من اللافت للانتباه أن الله خلقك بطريقة تتناسب مع حقيقتك كعبد؛ حتى لا تجد صعوبة في ارتداء رداء العبودية، لم يجعل أصلك ذهباً ولا فضة ولكنه التراب أحسن الأشياء. ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ ولو نظرت إلى المني أو شممته لعافته نفسك ولتقررت هذا أصلك ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾.

فابن التراب ليس له أن يتكبر لاسيما على خالقه تبارك وتعالى لو كان الإنسان أطول من الأشجار والجبال لربما كان هذا مدعاة إلى علوه وتكبره، ولكن الأمر ليس كذلك ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الأنعام: ٣٧].

يا عبد الله!! كم أنت صغير الحجم جداً، فأنت وملايين البشر لا تعدلون حجم سلسلة جبال واحدة على ظهر هذا الكوكب الذي هو كنقطة في هذا الكون العظيم ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٥٧]، ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [التأنيث: ٢٧]. ثم أنت مع ذلك ضعيف شديد الضعف ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٧]. فالضعف لك صفة أصيلة أما

القوة فعليك طارئة ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الرؤس: ٥٤].

اعرف نفسك

إنك لا تتحمل الجوع ولا العطش ولا الألم، بل لا تقاوم النوم طويلاً، تيار من الهواء يُخلِّفك طريح الفراش أياماً، سمعك محدود، بصرك محدود، بطشك محدود، لا يسعك أن تحمي نفسك من هجمة سبع، أو لدغة حشرة.

من أنت؟ الصِنَانُ في أذنيك، والمُخَاط في أنفك، الدم في عروقك، البول في مثانتك، العذرة في أمعائك، البُصَاق في فمك.
من أنت؟ الطاووس أجمل ألواناً منك، الفيل أكبر منك، الفرس أسرع منك، أيها المسكين تقتلك شرقة، وتؤذي بك بقة.

وقفة تأمل

تأمل يا عبد الله في نعم الله الباطنة والظاهرة عليك ﴿فَاذْكُرُواْ ءَالَآءَ اللّٰهِ﴾ وتأمل لو حُرمت نعمة واحدة كم يكون خسرانك وشقاؤك؟ فكيف حالك لو حرمت عدداً منها؟، ولو قُدمت لك النعم المسلووبة بأهبط الأثمان، أكنت تتردد في تقديم أغلى الأثمان للحصول عليها مرة ثانية كنعمة السمع أو البصر أو العقل أو الصحة؟.

الله الكريم! وهبك كل تلك النعم: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ مِّنَ اللّٰهِ﴾ [الحمل: ٥٣]، ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ [لقمان: ٢٠].

وكان من دعاء النبي ﷺ : «اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر» وفي المساء يقول: «ما أمسى بي» رواه أبي داود وحسنه العلامة ابن باز في «التحفة» .
وأنعم عليك سبحانه بنعمة الهداية، فاشكرها وانظر إلى حياة الضالين المتخبطين الخاسرين، وسل الله أن يُنعم عليك برضاه والجنة.

هيا بنا نتفكر ساعة

من الذي أوجدك من عدم؟ عمرك الآن لو افترضناه ثلاثين سنة أين كنت منذ ٣١ سنة؟ ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾، كنت ترابًا فسواك بشرًا سويًا.

إنه الوهاب الذي وهبك الحياة ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾، أنت ما خلقت نفسك بل أنت لا تعرف عدد خلايا جسمك، ماذا لو وُلدت منذ عدة قرون؟ تخيل صعوبة الحياة، لا كهرباء، لا سيارات، لا وسائل اتصال، لا عمليات جراحية، لا دورات مياه في البيوت، أتدري حجم الصعوبات التي كنت ستواجهها لتبتعد عن مساكن الناس في ليالي الشتاء لتقضي حاجتك؟

تخيل أنك وُلدت بالإسكيمو أو في الأدغال؟

تخيل أنك وُلدت لأبوين يهوديين أو نصرانيين أو بوذيين أو شيوعيين ملحدين، هل كنت ستختار الإسلام وتستجيب للفطرة؟ أم ستوافق

الأغلبية؟ امتحان رهيب عصمك الله منه بأن خلقك لأبوين مسلمين،
أليس كذلك؟

أليس من نعمة الله عليك أن خلقك تفهم اللسان العربي، فتفهم
القرءان وبه تتأثر، أليس على الصيني والهندي والأمريكي، والألماني،
والفرنسي، وغيرهم أن يبذلوا جهدًا كبيرًا ليفهموا كتاب الله.
حبب إليك الإيمان، وشرح له صدرك، وأوحى إليك فعل الخيرات
وترك المنكرات، سترك ولم يفضحك، نشر الجميل، وستر القبيح.
كم من آلاف الأمراض في الدنيا عافاك منها؟ ألم تفكر يومًا كيف
تلتئم جروحك، من الذي يحفظك نائمًا يقظًا، من الذي يرد عليك
روحك بعد النوم.

أيها المدلل

- هل رَفَضَ الماءَ مرة إرواءك؟
- هل أبى الطعام يومًا إشباعك؟
- هل رَفَضْتَ الدواب حملك وحمل متاعك؟
- هل امتنعت الشمس يومًا عن الإشراق؟
- هل امتنعت النار عن الإحراق؟
- هل استشعرت أن الكون مُسخر لك لتعبد الله؟
- هل أمسكت قَلَمًا يومًا لتكتب به بعض نعم الله؟

أيها الغافل عن نفسك الجاهل بها..

كل ذرة في جسمك نعمة، كل شعرة في بدنك نعمة، كل عضلة في جسدك نعمة، أمدك بإبصار العين، وبسمع الأذن، وبجريان الدم، وبتردد النفس، وبحركة المفاصل.

«فلولا الله» ما دَقَّ قلبٌ، ولا رَأَتْ عينان، ولا سمعت أذنان، ولا نطق لسان، ولا مشت رجلان، ولا بطشت يدان، ولا تنفست رتبان، ولا هضمت معدة، ولا أفرزت غدة، ولا... ولا...

نعم تفكر في هذا النعيم الذي تتقلب فيه وأنت لا تدري.... صحة في بدن، وأمن في وطن، غذاء وكساء، هواء وماء تمشي على قدميك وقد بُترت أقدام، تملأ بطنك طعاماً شهياً وماء بارداً وتنام ملء جفنيك وربما أطار الألم نوم أقوام.

أمدك بالأرزاق المختلفة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ﴾، هو الذي علمك ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وإلا فقد خرجت من بطن أمك لا تعلم شيئاً.

يحفظك من الحيات والعقارب، من الحوادث والكوارث، من الخسف والزلازل، من الجفاف والوباء، لا يؤده حفظ السماوات والأرض أيؤده حفظك أنت؟!.

أنعم عليك بزوجة طيبة صالحة، تسكن إليها نفسك.. لا تخونك أليست نعمة؟.

أنعم عليك بنعمة الحرية فلست أسيراً مقيداً محبوساً.

أنعم عليك بنعمة الأمن والأمان، وبنعمة المأوى والسكن، وبنعمة اللباس والزينة، وبنعمة العمل والوظيفة.

وأعظم من هذا كله نعمة القراءة، وبنعمة الصحابة، إننا نحمد الله أن أيدَ نبيه بهؤلاء الأفاضل الربانيين الذين بذلوا أرواحهم لإعلاء ونشر هذا الدين.

نعمة المساجد، نعمة المصاحف، نعمة وجود العلماء الربانيين والدعاة المخلصين، نعمة الأشرطة والكتب، نعمة الشبكة العنكبوتية لمن يتق الله في استعمالها، نعمة أنك تضغط زر التلفاز فتري العلامة الحويني، أو القدوة العالم العامل فضيلة الشيخ / أحمد فريد، أو الرباني / يعقوب، أو سماحة شيخنا المحسن / محمد حسان، وغيرهم من مشاعل الهداية وأعلام صحتنا السلفية المباركة.

صنع الله الذي أتقن كل شيء

من الذي زين فمك بالأسنان كالدر المنظوم، وجعل فيها المنافع العجيبة؟ من الذي قوس حاجيك وأحسن خطهما، وأبدع عينيك الرائعتين؟ من الذي أعطاك يدين تصلان إلى جميع بدنك، وركب فيهما الأصابع، وجعل على رؤوس الأصابع أظافر تلتقط أدق الأشياء، فالظفر الذي هو أحقر الأشياء لو عَدِمَتْهُ ثم أصابتك حكة لم يَقمْ مقامه شيء في حك بدنك؟ ألم تر إلى النائم تلدغه البعوضة فيتوجه ظفره مباشرة إلى

مكان لدغتها تحديداً فيحكه والملدوغ مستغرق في سُبات عميق؟ ولو جعل الله بالأظافر إحساساً لما استطاع أحدٌ قَصَّ أظافره!!

من الذي نَوْع الحناجر فتختلف الأصوات الصادرة عنها، من الذي ركب لك الإبهام في مقابلة سائر الأصابع؟ فلولاها لما استطعت أن تأكل أو تكتب أو تخطط ثوباً لأنك ستعجز عن الإمساك بقلم أو ملعقة أو مطرقة، من الذي يضمن لك ألا تخرج عينك من محجرها وأنت تعطس عطسة تقدر سرعتها بـ ١٠٠ كم/ في الساعة أحياناً؟!

من الذي ركبك بهذا الإحكام؛ فالعين في المحجر، والقلب في القفص الصدري، والمخ في الجمجمة، والنخاع في العمود الفقري، من الذي جعل داخل جسمك ثلاث شبكات ليس لها مثيل على وجه الأرض، شبكة الأعصاب، والأوعية الدموية، والمسالك البولية.

أتعلم أنه كلما مرّت عليك ثانية واحدة تموت فيك ٢.٥ مليون كرة دم حمراء، ويولد لك مثلها بإذن من تتجدد؟ إن الإنسان تموت فيه كل ثانية حوالي ١٢٥ مليون خلية؛ فلولا أن الله يخلق له بدلها لتآكل كما يتآكل الميت في قبره... أعطي الله جسّدك خاصية الترميم، تسقط شعرات فتنبو غيرها وهكذا.

من الذي علم الرضيع المصّ، من هداه إلى التقام ثدي أمه، يولد طفل من كل ٦٠٠ ألف طفل بالعالم ليس لديه منعكس المصّ^(١) يموت جوعاً لأنه لا يمكنه الرضاعة كسائر الأطفال.

(١) الفعل المنعكس هو حركة تلقائية لا شعورية تنشأ استجابةً لمؤثر حسي كوخز الدبوس للجلد إذ ينتفض الإنسان قبل أن يفكر.

ماذا لو...

أتدري ماذا لو نما جسمك بغير اتزان؟ لرأيتَ عينًا أكبر من الأخرى ورجلاً أطول من أُختها وأصابع غير منتظمة.

أتدري أنه لو انسَدَّت القناة الدمعية؟ لاستحالت حياتك جحيماً لا يطاق؟ أما لو اختل مركز توازن السوائل فيك فساعتها لن تشعر أبداً بالعطش وبالتالي قد يُشرف الجسم على الهلاك وأنت لا تشعر بالعطش فتموت، وحتى لا تصل لهذه الحال فعليك أن تواصل شرب الماء باستمرار وتصير حياتك بين زجاجات الماء والخلاء!!

ها هو رجل يدفع لأحد موظفيه عشرة آلاف ليرة في الشهر، تدري مقابل ماذا، إن هذا الرجل مصاب بشلل في عضلة المستقيم فلا يمكنه أن يخرج فضلاته وبرازه بنفسه فلا بد من إنسان يستعمل آلة معينة يُنزلُ له النجاسات!!.

حبيبي في الله... كم تدفع أنت شكراً لله مقابل نعمة أنك تتردد على الخلاء، لا يَطَّلِع على عورتِكَ أحدٌ، لا يُسمع لك صوت ولا يُشم لك ريح؟.. ألا فقل الحمد لله.

ها هو هرمون النمو الذي تفرزه الغدة النخامية مؤلف من (١٨٨) حمضاً أمينياً نسبته الطبيعية (١٠) ميكرو جرام لكل لتر من الدم لو زادت هذه النسبة لحدثت العملاقة ولو قلَّتْ لكانت القزامة؛ فسبحان الذي خلق كل شيء بقدر.

أما الهرمون الجنسي فنصف جرام منه فقط تتسبب في أمارات الرجولة التي أنت عليها، وإن خللاً يسيراً في هذه النسبة لا قدر الله يُسبب أعراضاً تدمر رجولتك.

أيها المسكين!! لو ضاق شريانك التاجي مليمتر واحد فقط لدخلت في متاهات لا قِبَلَ لك بها، لو أن إنساناً مُصَاب بفيروس الكبد الوبائي يعمل بأحد المطاعم ولم ينظف ما تحت أظافره جيداً. من الذي يضمن لك أنك لست حاملاً لهذا المرض وقد أكلت في هذا المطعم وجبة قد أعدها هذا المصاب؟

يا أخي!! أظن أنك لو تَعَطَّلْت فيك غُدَّة واحدة عن عملها هل بإمكانك أن تنام الليل؟ إنك لا تستطيع أن تبتلع لقمة جافة لولا هذا اللعاب.

أتدري أنه لو نقص مُرَكَّب الحديد في جسمك لتعرضت لضعف عام، وكسل وخمول، وصداع بالرأس، وطنين بالأذن، وضعف الأظافر، وتقصف الشعر، و... و... و...

من الذي أوجد هذا التوازن العجيب بين ضغط الهواء الخارجي عليك وبين ضغط جسمك من الداخل؟ ألا ترى إلى رُؤَادَ الفُضَاءِ يَرْتَدُّون ملابس خاصة تكلفهم الملايين تُوفّر لهم الضغط المناسب وإلا انفجرت أوعيتهم الدموية.

هل تصورت نفسك بلا عُنُق؟ كم أنت دَمِيمٌ مخيف؟

هل سألت نفسك

كم شاب في مثل عمرك يتمنى أن لومشي على قدميه... لا يستطيع؟

كم شاب في مثل سنك يتغذى على المحاليل؟

ها هو أحد الشباب استلقى على سرير المرض في إحدى المستشفيات وقد أحضرت له أمه طعامه الذي أعد بالخلّاط عدة مرات ثم جعلته على ظهره ووضعت قُمعًا في فمه وبدأت تُطعمه بحذر شديد.

إني أنصحك بزيارة المرضى.. تسمع الآهات، وترى العجائب، وتعرف نعمة الصحة.

في معهد الأورام ترى من تورمت عينه وانتفخت حتى صارت بحجم رأسه، وآخر إن أراد أن ينظر إليك ضغط على شفته المتورمة ليراك، وثالث تورمت خصيتاه كالشاهمتين قل لي بربك كيف ينام وعلى أي هيئة يستلقى، قُم بزيارة قسم الحروق... قُم بزيارة قسم الكسور... قُم بزيارة قسم السرطانات.

تردد على هؤلاء الذين ينتظرون الموت مكانهم.. أحد الشباب مرَّ بطريق أثناء مشاجرة، استعمل فيها بعض المجرمين حامض الكبريتيك المركز (ماء النار) فسقطت على وجهه قطرات، هذا الشاب اختفت معالم وجهه بالكلية، انصهر الوجه تمامًا، وضاعت ملامحه، احتاج الأطباء إلى كيس رحم يوضع على وجهه ليُعَاد رسم ملامحه من جديد، يُشَق مكان للعين وفتحيتين للأنف وآخر للفق... فتأمل.

ألا ترى أنه لولا نعمة القراءة لما كُنت مُمسكًا بهذا الكتاب الآن،
ولربما دَخَلْتَ حَقْلَ أَلْغَامٍ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي؟

ومن نعم الله عليك أنت أنه عَلَّمَ فُلَانًا الطَّيِّبَ صِنْعَةَ الطَّبِّبِ كَيْ
يُصِفَ لَكَ دَوَاءً.

ومن نعم الله عليك أنه عَلَّمَ كُلَّ سَائِقٍ أَقْلَكَ إِلَى مَكَانٍ مَا مَهْنَةُ الْقِيَادَةِ.
ومن نعمه عليك أنه عَلَّمَ فُلَانًا النِّجَارَةَ، وَعَلَّمَ فُلَانًا النِّقَاشَةَ وَفُلَانًا،
السِّبَاكَةَ، وَفُلَانًا وَفُلَانًا... لَتَنْتَفِعَ أَنْتَ بِمَهَارَاتِهِمْ فَهَذِهِ نِعَمٌ قَلَّ مَنْ يَنْتَبِهَ
إِلَيْهَا وَيُشْكِرُ اللَّهَ عَلَيْهَا.

وَأَسَفًا!!!!!! إِنَّهَا جَوَاهِر!!

يحكون قصة فرنسية أن رجلاً ضل في الصحراء، وفقد طعامه
وشرا به، وأشرف على الهلاك، فرأى بركة ماء؛ فشرب وارتوى وحانت منه
التفاته؛ فلمح كيسًا فطمع أن يكون فيه ثروة من الجواهر والآلياء والدُّرر،
فصاح وَأَسَفَاهُ هَذِهِ جَوَاهِر. نَعَمْ إِنَّ الْإِشَارَةَ وَاضِحَةٌ قَرِيبَةٌ إِنْ كَيْسَ
جَوَاهِرٌ يُقَدَّرُ بِالْمِليارات لا قيمة له حين لا تجد رَغِيفَ الْخُبْزِ وَشُرْبَةَ الْمَاءِ.

وفي أثناء الحرب العالمية كان رَغِيفَ الْخُبْزِ يُبَاعُ بِالْقِطْعِ الذَّهَبِيَّةِ وَفِي
تَوَارِيخِ الْمَجَاعَاتِ تُطَالَعُ أَنَّ الرِّغِيفَ كَانَ يُبَاعُ بِالْعَقَارِ!!!.

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ ﴾ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ
شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَنْبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا
(٣٠) وَفِكَهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَّعَّاكُمْ وَلِنُذَكِّرَ (عَبَسَ: ٢٤-٣٢).

إنك لا تدري ما الذي يحدث في هذا الكون العظيم لتنبت ثمرة فاكهة واحدة، تذهب إلى السوق وتشتري تفاحاً أو عنباً وتعطي البائع جنيهات تحسبها قيمة العنب أو التفاح، أنت واهم قطعاً وإلا فما في الأرض مبلغ من المال يمكن أن يصنع تفاحة واحدة، إنما تدفع نظير خدمات من نقل الفاكهة إليك.

إنك أيها المؤمن حين تتناول طعامك تستحضر نعمة الله عليك فيه، تذكر طعام أهل الجنة وطعام أهل النار، وتستحضر إخوانك الجوعى هنا وهناك وتنظر بعين البصيرة إلى طعامك هذا، كيف سيقَ إليك من بلاد بعيدة، تستحضر نعمة أن الله حرّم علينا الدم فهو نجس لا يؤكل باتفاق العلماء، وهو يحمل سُمومًا كثيرة ومركبات ضارة عسيرة الهضم.

وقد لاحظ الدارسون أن القبائل التي تستمرئ أكل لحوم السباع والجوارح التي حرم الإسلام تناولها تصاب بنوع من الشراسة، ويصبح طبعها العنف والميل لسفك الدماء ولو بغير سبب، كما تصاب بالفوضى الجنسية إذ أن الأكل تنتقل إليه بعض صفات المأكول، وهذه السباع تفرز أجسامها هُرُمُونات تسهل لها القنص والافتراس حتى لو كانت محبوسة في الأقفاص.

ولعل أكل الخنزير أحد أسباب انعدام الغيرة عند الغربيين؛ فترى عندهم ما ترى، وما وباء (السارس) الذي اجتاح الصين وجنوب شرق آسيا إلا بسبب تناولهم للحوم الكلاب والسنانير؛ فشنوا حملات قتل

الحيوانات وإلغاء تراخيص التجارة فيها؛ للحد من الوباء الذي اجتاحتهم
فعجزوا عنه^(١).

ومن نعم الله عليك أن خلق لك شفتين: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ (٨)
وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿[البقرة: ٨-٩]، فلو خلق الله تعالى الإنسان بلا شفتين
لأصبح منظره مخيفًا مقززًا، ولبرزت أسنانه، وَلَسَّالَ لُعَابُهُ وتساقط من
فمه، كما جعل الله للشفتين القدرة على إتمام مخارج الحروف، هيا افتح
شفتيك ولا تطبقهما وحاول أن تنطق كلمة (بومة) مثلاً أو (فوزي) أو
(مبرور)، ومن حكمته سبحانه أن جعل الشفتين لحمًا صرفًا لا عظم فيه؛
لِيَتِمَّ كُنَّ بهما من مَصِّ الشراب وليسهل فتحهما وطبقهما، وجعل الفك
السفلي هو المتحرك لا العلوي فهذا هو الأيسر والأليق.

(١) وقد حكى لي رجل أعمال مسلم أن الصينيين كانوا يتعجبون ويسخرون من الأخوة حين
يسجدون لله في الصلاة وقال قائلهم: «الشعب الصيني شعب قوي لا يحتاج إلى إله»!! ﴿قُلْ
الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾ [عبس: ١٧].